بيكر والنيل

تأليف دوروثى ميدلتون — فالكون ، لندن ١٩٤٩

٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط

DOROTHY MIDDLETON. *Baker of the Nile*. The Falkon Press, 1949

هذا الكتاب هو ترجمة حياة حديثة كتبتها دوروثى ميدلتون عن سير صمويل هوايت بيكر (١٨٢١ — ١٨٩٣) المستكشف الإنجليزى . والمعروف أنه ولد فى ٨ يونيو عام ١٨٢١ ، وقضى زهرة شبابه فى جزيرة سيلان (١٨٤٥ — ١٨٥٥) بعد أن نال قسطاً موفوراً من التعليم[١] وبدأ فى عام ١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن ينابيع النيل . وفى فبراير ١٨٦٣ تشاء الظروف أن يتقابل مع سبيك وجرانت عقب كشفهما بحيرة فكتوريا نيانزا وذلك فى جندوكرو ، وأبلغاه وجود بحيرة كبيرة أخرى ، فأتيح لبيكر مشاهدتها فى ١٤ مارس ١٨٦٤ وأطلق عليها ألبرت نيانزا ، وبعودته إلى لندن احتفت به الجمعية الجغرافية الملكية ومنحته ميداليتها الذهبية كما منحته حكومته لقب فارس .

وفى عام ١٨٦٩ كان قد اتصل بحكومة مصر عند ما طلب إليه الخديو إسماعيل الكفاح ضد تجارة الرقيق فى أقاليم أعالى النيل بعد فتحها وضمها إلى مصر ، ومنحه الخديو الباشوية وهيأ له حملة نيلية قوامها الجنود المصرية والسودانية ، وقد كتب له الفوز فى مهمته وعينته مصر حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء المصرية . وظل فى منصبه ينشر الأمن ويرفع علم مصر فى جهات هذا الإقليم الفسيح ، حتى خلفه جوردون عام ١٨٧٤ وتسلم مقاليد الإدارة منه .

وعاد بيكر إلى « ساند فورد أورلى » بمقاطعة ديفونشير وتوفى فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٩٣ .

والمعروف أن بيكر ألف عدة كتب من أهمها :

(١) أتم بيكر علومه فى فرانكفورت .

بحيرة ألبرت نيانزا (١٨٦٦) — فروع النيل الحبشية (١٨٦٧) — الاسماعيلية (١٨٧٤) — الوحوش الكاسرة وعاداتها (١٨٩٠) — وكتب أول مؤلف عن أعماله إنجليزيان هما مورى وسيلفا هوايت (١٨٩٥) .

وهكذا نرى أن بيكر قد خلد اسمه بين كبار الرواد العالميين والذين اتصلت أعمالهم بالقارة الإفريقية .

* * *

والكتاب الذى نحن بصدده اليوم ترجمة صادقة لحياة إنجليزى يمثل الطابع الفكتورى الذى شيد رجاله مجد بريطانيا على دعائم المعرفة والاتصال بالشعوب الأسيوية والإفريقية ، ولذلك يعتبره الإنجليز أحد بناة إمبراطوريتهم . اتصل بالشرق الأوسط وعرفه ثم أدرك أهمية بلدانه وشعوبه عن دراسة عميقة، ولذلك فهو يسبق جوردون ولورد كرومر وكولونل لورنس ومن على شاكلتهم ممن اشتغلوا بالسياسة البريطانية ، وكمستكشف جغرافى يقف مع ليفنجستون وستانلى وسبيك وبورتون وبلجراف وغيرهم .

وبيكر فى نظر المؤلفة دوروثى ميدلتون من أبطال الانجليز ، تقول فى مقدمة كتابها إنها لم تجهد فى تأليفه لأنها أفادت مما كتبه بيكر فى أسفاره العديدة . فكتابها ، فى الواقع ، ملخص سهل ممتع لتلك المجلدات الضخمة التى دونها سير صمويل بيكر فى أخريات القرن التاسع عشر ، وقد أصبحت اليوم مما لا يسمح باعارته فى دور الكتب لقدمها وندرتها . فهذا الكتاب فى نظرنا خلاصة طيبة لزهور مختارة من غابة فسيحة ، لا يقدم على اجتيازها إلا القلائل .

* * *

قسمت المؤلفة كتابها إلى أربعة أبواب (سمتها كتباً) الباب الأول بيكر الصياد . تناولت فيه حياة الشاب سام (صمويل بيكر) ، ونشأته فى مزرعة أبيه ثم سفره إلى جزيرة سيلان ، ووصفت لنا ما أفاده من التجارب والمغامرات فى الصيد والقنص والتعود على الحياة القاسية . وهذا الفصل ينطوى على حياته فيما بين عامى ١٨٢١ و ١٨٦١ وتربيته الأولى وانتقاله لألمانيا لإتمام علومه حيث هوى الصيد واستخدام السلاح النارى — إلى درجة الإجادة ، وبعودته إلى بلده سرعان ما وقع وأخوه فى حب فتاتين شقيقتين فعقدا الزواج عليهما . وكانت هنريت مارتن من نصيب سام، وتتألف أسرتان ثم تسافران إلى جزيرة موريتيوس

حيث كانت مزرعة أبيه .

وفى سيلان قضى ثمانية أعوام يجوب فى أطراف الجزيرة يصطاد الفيلة مع أصدقائه ثم أخرج لمواطنيه كتابين : « جولة ثمانية أعوام فى سيلان » و« البندقية وكلب الصيد فى سيلان » .

وفى خلال إحدى مغامراته وصله نبأ مرض ابنه فعزم على السفر إلى وطنه وفى أثناء الرحلة توشك السفينة على الغرق ويصاب بحمى شديدة . وما شفى حتى يوصى أطباؤه على أن يعود لتمضية فترة النقاهة بين تلال سيلان .

وكان لا بد من أن ينتهى الصيد والقنص والمغامرات العنيفة فيرغم على العودة ثانية إلى إنجلترة حيث أصيبت الزوجة بالتيفوس وتوفيت على الأثر . وكانت صدمة عنيفة تحملها الزوج رأى بعدها أن يرحل إلى الشرق . ويعرض عليه منصب لإدارة شركة سكة حديدية فى البلقان فيقبل العرض ويرحل إلى الدانوب ويعمل بهمة لا تعرف الملل .

ولم يستطع صمويل العيش وحيداً بدون زوجة بالرغم عن أنه كان يرى أنه ما من امرأة أخرى ستشغل مكانة حبيبته هنريت من قلبه ، ولكنه وفق وعثر على ضالته ، وكانت فلورنس فون ساس المجرية زوجته الثانية ورفيقته فى مجاهل إفريقية .

إفريقية التى بدأت تشغل أحلام صمويل بعد سيلان !

* * *

ونتقل مع المؤلفة إلى الباب الثانى من كتابها المعنون « بيكر المكتشف » (١٨٦١ — ١٨٦٩) وقد قسمته إلى ثلاثة أجزاء : فروع النيل فى الحبشة ، ألبرت نيانزا ، العودة .

وفيه تناولت وصف رحلة بيكر عبر الصحراء السودانية مع زوجته الحسناء على ظهور الجمال فى إفاضة حتى وصوله إلى الحبشة وجولاته فى أنحائها باحثاً مدققاً فى كافة أحوالها وعادات شعوبها ، وكان بيكر قد تعلم العربية فسهل عليه الاتصال بمن كان يقابلهم ، ثم عاد إلى الخرطوم واتجه ثانية نحو منطقة البحيرات الاستوائية حيث منابع النيل (١٨٦٢ — ١٨٦٣) وفى هذا الجزء نقلت المؤلفة مما كتبه بيكر فى مؤلفاته عن المتاعب والأهوال التى كانت تهدد حياته وموقف زوجته مع رؤساء قافلته ورجالها الذين ألف منهم زمرة من الأصدقاء

انقلب عليه بعضهم وانضموا إلى أحد زعماء تجار الرقيق .

وبالرغم من كل تلك المتاعب وصل إلى بحيرة ألبرت نيانزا التى ألف لها كتاباً يعتبر أول كتاب عنها ، واستمر فى مسيره حتى بلغ الشلالات التى أطلق عليها اسم رئيس الجمعية الجغرافية — مرشيزون ؛ وبعد جولات استغرقت عامين ونصف عاد ثانية إلى الخرطوم ومنها يرجع إلى لندن فائزاً .

وننتقل إلى الكتاب الثالث « بيكر الباشا » (١٨٦٩ — ١٨٧٣) وهو أهم فصول الكتاب وقد قسمته المؤلفة إلى ثلاثة أجزاء : نداء إفريقية ، الإسماعيلية ، عدل جاف ، الحرب والسلم . ومصدر هذا القسم فى الكتاب مقتبس من كتاب بيكر المعروف بـ « الإسماعيلية » .

ويعتبر كتاب الإسماعيلية وثيقة فياضة بحقوق مصر فى السودان الجنوبى ، منذ استدعى الخديو إسماعيل « مستر بيكر » وعقد معه عقداً فى ١٧ مارس سنة ١٨٦٩ يتعهد فيه بالدخول فى خدمة إسماعيل باشا ، فيخدم الحكومة المصرية لمدة سنتين على الأقل ابتداء من أول أبريل سنة ١٨٦٩ وتكون مهمته قيادة حملة غرضها ضم بلاد حوض النيل وإفريقيا الوسطى إلى الأقطار المصرية أى اعلان السيادة المصرية على بلاد النيل الأبيض التى تقطنها أمم متبربرة لاقوانين لها ، وإلغاء النخاسة فى منطقة النيل الأبيض ، وادخال الوسائل المشروعة للتجارة التى تعود بالفائدة على مصر وإنشاء الملاحة فى البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء وهى منابيع النيل الرئيسية . وعلاوة على ذلك إنشاء خط من النقط العسكرية ابتداء من غندكرو (الإسماعيلية) فى حوض النيل المتوسط وذلك ضماناً للاتصال من أقصى نقطة ، وقاعدة أعمال الحامية ، وضم الأراضى التى تمر بها هذه النقط العسكرية بعد إنشائها إلى أراضى الإمبراطورية المصرية وما إليها (١)

ولكننا نلاحظ أن للمؤلفة رأياً قديماً عن إسماعيل وجهوده العظيمة ، فلم تنصفه على ضوء وثائق التاريخ الحديثة بل جرت فيما كتبته عنه على نسق المؤلفين الانجليز القدامى فى القرن التاسع عشر ، وحبذا لو جهدت نفسها قليلا باحثة فى مئات الوثائق التى يضمها قسم المحفوظات التاريخية بقصر عابدين .

وبالرغم من عدم إنصافها فهى تنقل حرفياً ما أورده بيكر فى تقريره الذى

(١) Letter to Lord Wharncliff quoted in Sir Samuel Baker's Memoir.

كتبه فى مارس ١٨٨٠ (بعد عزل اسماعيل) إلى لجنة مقاومة النخاسة قائلا :

His Highness Ismail Pasha gave me full powers With respcet to the slave-trade, and took greatest interest in its suppression; to carry out this plan, I havc absolute power, conferred by the Khedive.

تصف المؤلفة سير حملات بيكر بالتفصيل ومعاونة القواد والجنود المصريين له فى كل مكان ورفعه أعلام مصر فى غندكرو وغيرها من البلاد الجنوبية . إنه لفصل فخم حقاً يصف أعمال مصر فى تلك الأقاليم التى أرادت أن تضمها إلى أحضان الحضارة الحديثة فى الوقت الذى كانت تمهد الدول المتمدينة الأخرى لإلحاقها بحظيرتها بدافع التوسع والتملك والاستعمار .

إنها لصفحات رائعة (١٨٥ — ١٩١) التى دونت فيها المؤلفة حفلة رفع العلم المصرى على غندوكرو وزينتها بصورة سوف تبقى على مر الزمن دليلا على آمال مصر وبعد نظر حاكمها .

وجهود بيكر واضحة فهو يعمل فى سبيل الإنسانية المعذبة لإنقاذ عبيد المديريات الاستوائية الذين استغلهم تجار النخاسة أجيالا وملأوا بهم أسواق أميركا الشمالية والجنوبية ، تلك الجهود الشاقة التى مهدت لجوردون السبيل لإتمام رسالة خديو مصر .

ولا نبالغ مع القائلين أن بيكر كان إنجليزياً له صفحة فى التاريخ مجيدة رائعة . والفضل فى ذلك عائد إلى مصر ورجالها الذين عاونوه فى القاهرة والخرطوم وفى كل بقعة وصل إليها فى الجنوب .

أما الكتاب الرابع فهو خاتمة حياة بيكر (١٨٧٣ — ١٨٩٣) عنونته المؤلفة — بيكر المستشار عند ما قصد قبرص لخدمة الإمبراطورية . وفى هذا الفصل يتضح انهيار أعمال بيكر وخليفته جوردون فى أقاليم خط الاستواء ، وتصف الأحداث التى لحقت بمصر عقب الاحتلال البريطانى وانسحاب الحاميات المصرية من جميع أنحاء الجنوب .

وفى صفحة ٢٦٠ لاحظنا أن المؤلفة عندما تناولت الحديث عن حملة هيكس المشئومة ضد المهدى وهزيمتها فى معركة شيكان بكوردفان قالت «دارفور» . ولا شك أنها وقعت فى هذا الخطأ سهواً . وهذا لا يعد شيئاً يذكر إلى جانب العمل الذى أقدمت عليه بتقديم جميع مؤلفات سير صمويل بيكر العديدة النادرة فى مجلد واحد .

عبد الرحمن زكى